الخـــلان والزمان

بين أبي فراس والبارودي

للأستاذ محمد محمد الحوفي

تمهيد:

١ — نفسية الأديب هي الشاعرة أو الناثرة ؛ فهي أحق بالدراسة حين نريد أن نفهم الآثار الأدبية للشاعر أو الكاتب .

٢ — المقارنة المفصلة الشاملة بين الآثار الأدبية طريقة طريفة مشوقة ، تميز الجيد من الرديء ، وترينا نوع العلاقة بين الأديب اللاحق والأديب السابق .

٣ — وعن طريق هـذا الأدب النفسي المقارن ، سنعمد إلى تفهم أبي فراس والبارودي إذ وجدنا بينهما تشابهاً عجيباً في نواح كثيرة .

٤ — أبو فراس الحمداني : من آل حمدان ملوك حلب ، ولد ٣٢٠ هـ وتوفي ٣٥٧ .

ومحمود سامي البارودي : من سلالة المماليك بمصر ، ولد ١٢٥٥ هـ وتوفي ١٣٢٧ .

الخـــلان

تركت أبي طفلا وكان أبي[1] من الرجال كريم العود ناضره

هذا بيت لأبي فراس ، وهو صورة لقلب آس دامع ، ودليل على يتم مبكر شعر بهوله ذلك اليافع ؛ فاذا عسى أن يكون هذا اليتم في نفس أبي فراس وفي تفكيره وفي عبقريته ؟

خلفه أبوه في الثالثة من عمره ، فشب أبو فراس في حضانة أمه ، وتلقن منها ذكريات العزة والبسالة التي أثرت عن أبيه .

وما ظنك بطفل أول ما يدرك يعرف أن أباه إنما عاش محارباً ومات محارباً ؟ إن هـذا الناشيء لا بد أن ينطبع على شيمة أبيه فينشأ بازلا باسلا ، ولا سيما أنه في بيئة بني حمدان ، وطابعهم كلهم النزال والصيال .

ثم ما ظنك بصبي يتيم ينشأ في وسط أبناء عمه من الأمراء الذين لم يبتهم الزمان ؟ إنه يرى هؤلاء الأبناء من حوله مدللين مكرمين مغمورين بعطف آبائهم ، محفوظين برعايتهم ، ويرى الناس يجاملون أولئك الأبناء ، ويعطفون عليهم ؛ رعياً لمكانة آبائهم ، وتزلفاً لهؤلاء الآباء الأمراء .

أما أبو فراس فمن يعوضه عطف أبيه ، وأي الناس يلاعبه ويناغيه ، في حين أن لا أب له يتزلف إليه الناس بالعطف على ابنه .

وإذن فقد نشأ أبو فراس شاعراً بنوع من النقص — والشعور بالنقص أول مراتب الكمال — فلا بد أن تدفعه الطبيعة إلى استكمال ما نقص ، فينشأ فارساً أي فارس .

ولا بد كذلك أن يعتز بكرامته وشرفه ، ويفخر بنفسه وأهله وأبيه حتى إنك تراه لا ينسى هذا الفخر ، وإن كان يعاني كرب الأسر .

فها هم أولاء آباؤه مفاخر ، يقدمون حين يحجم الفخار ، ومن ورائهم شهب ثواقب ، وهو أثقبهم شهاباً ، وأحامهم ضراباً :

أنا ابن الضاربين الهـام قدما إذا كره المحامون الضرابا
ألم تعلم ومثلك قال حقـا بأني كنت أثقبها شهابا

وها هو ذا يستحث سيف الدولة على فدائه ، بأنه نسيج وحده في المعالي ، وفي الذود عن حمى أسرته :

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى شديداً على البأساء غير ملهد ؟!
فإن تفقدوني تفقدوا العلا كم فتى غير مردود اللسان ولا اليد
يطارد عن أحسابكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

ثم يستحثه بأن الإسلام لا يستغني عن حراسته :

فإن لم يكن ود قريب نعده ولا نسب دون الرجال قراب
فأحوط للاسلام ألا يضيعني ولي عنك فيه حوزة ومناب

وهو يقرع عشيرته بأنه بازلها الذي يحميها ، وهو ذؤابة أشرافها وأعاليها :

تمنيتم أن تفقدوني وإنمـا تمنيتم أن تفقدوا العز أصيدا
أما أنا أعلى من تعـدون همة وإن كنت أدنى من تعدون مولدا

وهو سيد قومه وعمدتهم :

منعت حمى قومي وسدت عشيرتي وقلدت أهلي من هَدِي القلائد
خلائق لا يوجدن في كل ماجد ولكنها في الماجدين الأماجد

وإنه في أسره ليحزنه أن تمر به الليالي آمنة ساكنة لا يثير فيها ولا يجير :

تمر الليالي ليس للنفع موضع لدي ولا للمعتفين جناب

(١) شطر البيت على هذه الصورة غير مستقيم لا في الوزن ولا في المعنى فليراجع (الرسالة)

ولاشد لى سرج على ظهر سابح ولا ضربت لى بالعراء قباب
ولا برقت لى فى اللقاء قواطع ولا لمعت لى فى الحروب حراب

***

وهكذا تجد ديوانه مليئاً بشعر الفخر والاعتزاز بالكرامة ، وهذا كما قلنا طبيعة نشأها فيه اليتم المشعر بالنقص ، الحافز إلى الكمال .

***

وقد جر أبو فراس البلاء على نفسه بسبب عبقريته الحربية : فالناس فى كل زمان يحقدون على العباقرة ، ويتمنون لهم كل فاقرة . وإن عشيرة أبى فراس وأقرانه ليعجبون ! ما لهذا اليتيم يبز أبناء عمه ممن تربوا فى رعاية آبائهم ، وتلقوا عنهم دروس النزال والصيال ، ثم ما له يخنق صيتهم بصيته ، ويمحى على آثار سيوفهم بصليته ، مع أنه — إلى يتمه — ليس أغناهم مالا ؟!

لابد إذن أن يأكل الحقد صدور هؤلاء الناس ، وأن يفرحوا بكل سيئة تصيب أبا فراس .

كما جر أبو فراس على نفسه البلاء بسبب فخره وتعاليه ، وغلوه فى اعتداده بنفسه ، فالناس إن حقدوا على العباقرة فهم أحرى بالحقد على المتحدثين عن أنفسهم ، الفُخر بأعمالهم وأحسابهم ، ولا سيما إذا كان الفخر من مثل أبى فراس ، هذا اليتيم الذى لم يسمع من أبيه كلمة مجد أوعزة ، وأى الناس لايحقد عليه ، ولم يدَع لغيره فضلا ، وكرر دعواه بأنه سيد عشيرته ، وألمع شهاب فى سماء أرومته .

وقد كان أسر أبى فراس محكا ميز أصدقاءه الأوفياء من غيرهم فقد حسب الذين كانوا يدارونه أن لا فداء له ، ولا غناء فيه ، فكشفت هذه الشدة خفاياهم ، وكذبت ألسنتهم ومراياهم .

وبعـــد :

فليس بدعا من أبى فراس بعد ما قدمنا أن يشغل بالتحدث عن الصداقات والصحاب والحساد والمرائين ، فى كل مناسبة ، ولا سيما مدة أسره . وقد قرر هو بعد التجربة أن الدنيا خلو من الصديق الوفى الذى يرضيك ما ظهر منه وما خفى .

وهاهو ذا قد خبر أصحابه ، فرأى أنهم كلهم عبيد المنفعة ، وأنهم يضرون ولا ينفعون ، حتى أصبح الخليل هو من يبتعد عنك حتى لا يضرك :

تناساني الأصحاب إلا عصيبة ستلحق بالأخرى غداً وتحول
وإن الذى يبقى على العهد منهم وإن كثرت دعواهم لقليل
أقلب طرفى لا أرى غير صاحب يميـل مع النعماء حيث تميل
ومنها نرى أن التارك محسن وأن خليـلا لا يضر خليـل
تصفحت أقوال الرجال فلم يكن إلى غير شاك فى الزمان وصول
أكل خليل أنكد غير منصف وكل زمان بالكرام بخيل ؟!

والناس فى نظره ذئاب فى ثياب فلا تتخيل أن كل اللاطفين صحاب

بمن يثق الإنسان فيما يثوبه ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهن ثياب

وهو يتحسر فى أسره على صاحب فرد ، لا يريم عن وده ، وإن تنكر الزمان واشتد :

أما ليلة تمضى ولا بعض ليلة أمر بها هـذا الفؤاد الموجعا
أما صاحب فرد يدوم وفاؤه فيصفى لمن أصفى ويرعى لمن رعى
وفى كل دار لى صديق أوده إذا ما تفرقنا حفظت وضيعا

وليس بدعاً كذلك من أبى فراس وقد شام الغدر فى الناس أن يكون أول ما يمتدح به الوفاء ، فهاهو ذا يقول لصاحبه أبى الحصين وقد كان من أوفيائه :

أبا حصين وخير القول أصدقه أنت الصديق الذى طابت مخابره
أين الخليل الذى يرضيك باطنه من الخليل الذى يرضيك ظاهره

وكذلك يمتدح نفسه بأنه يسارّ صديقه بعيبه ، ويجهر أمام الناس بفضله وحبه :

وإذا وجدت مع الصديق شكوته سراً إليه وفى المحافل أشكر

ويقول لأبى زهير ابن عمه :

ابن عمى إنى على شحط دار والقريب المحل غير قريب
صادق الود خالص العهد أنـــس فى حضورى محافظ فى مغيبى

وفى توديع أبى الحصين صديقه يقول :

يامن أصافيه فى قرب وفى بعد ومن أخالصه إن غاب أو شهدا
أضحى وأضحيت فى سر وفى علن أعده والذى إذ عـدنى وفدا

وليس معيار الصداقة عند أبى فراس وعند أحرار الناس ، أن يغدق الصديق على صديقه عطاياه ، أو يمطره إطراء عندما يراه